

تأملات مرتحل مسلم .. الأسرة ومدرسة السفر

بعد أن تأملنا في المقالات السابقة حول هدف السفر وفوائده الاجتماعية، وكونه محطة معرفية للتحقق واكتشاف الذات، ننتقل اليوم إلى بُعد آخر لا يقل أهمية، هو: السفر مع العائلة.

الترحال مع العائلة فرصة عظيمة لتوثيق الروابط، وترسيخ القيم الإيمانية والأخلاقية؛ فإذا كان السفر الفردي دعوة للتأمل في آيات الله الماثلة في الكون، فإن السفر مع الزوجة والأبناء سيضيف إلى ذلك بُعدًا تربويًا فريدًا يكون بمثابة استثمار طويل الأمد في بناء وصقل شخصية الأبناء.

إن تأمل الآية الكريمة: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} (العنكبوت: 20)، يعد حثًا عميقًا على التفكير في قدرة الخالق ووحدانيته، وكيف أوجد المخلوقات ونقلها من طور إلى طور. وهذا التأمل الذي يورث اليقين والإيمان، يتضاعف أثره عندما يتشارك جميع أفراد العائلة هذا الفهم، ليصبح كل مشهد طبيعي أو أثر تاريخي دليلاً مادياً على عظمة الخالق سبحانه وإبداعه في صنع هذا الكون.

الرحلة العائلية ورشة عمل تربوية

عندما يسافر الإنسان مع أسرته، سيشعر تلقائياً بتغير الأهداف والمسؤوليات؛ بل إن تفاصيل الرحلة نفسها ستحدث تغييراً في نمط الحياة داخل الأسرة بعيداً عن روتين الحياة اليومية وضغوطها، حيث تخلق هذه الرحلات ذكريات مشتركة لا تنسى، وتتيح فرصة للتقارب الحقيقي بين أفرادها.

تأملوا ردات فعل الأبناء حول مائدة غريبة، أو الدهشة المرتسمة على وجوه الجميع بسبب مشهد طبيعي أخذ، أو حتى التحديات الصغيرة التي تواجههم وكيف يتعاونون لتجاوزها؛ فكل هذه المواقف تنسج خيوطاً من الود والتآلف، وتعزز الشعور بالانتماء والوحدة الأسرية.

يتجاوز السفر مع العائلة كونه متعة عابرة أو إجازة صيفية ليتحول إلى ورشة تربوية تنمي مهارات الأطفال، بل وحتى الآباء والأمهات سيتعلمون مهارات جديدة قد لا تتيح البيئة المعتادة اكتسابها بسهولة.

إن التعلم بالممارسة والخبرة المباشرة خلال السفر يحول المفاهيم المجردة إلى تجارب حية؛ فتعلم الجغرافيا لا يكون بقراءة الخرائط فقط، بل بالسير في التضاريس المختلفة والتفكير في صنع الله في الجبال والبحار. والتاريخ لا يُقرأ عبر الكتب فحسب، بل يُعاش واقعا من خلال زيارة المعالم الأثرية والمتاحف التي تروي قصص الأمم السابقة، وكيف أن الأمم تتوارث وتتغير أحوالها وفقاً لسنن إلهية كونية.

تنمية المهارات الحياتية الأساسية

يمكننا استغلال فرصة السفر مع العائلة لتعلم بعض المهارات الأساسية، من أهمها:

- **إدارة الوقت والميزانية:** إشراك الأطفال في تخطيط ميزانية الرحلة اليومية أو تحديد الأنشطة بأوقات محددة، يُعلّمهم أهمية الحفاظ على المال وحسن التدبير، وهو مبدأ أساسي في ديننا حيث يُنهينا عن الإسراف والتبذير.

- **حل المشكلات واتخاذ القرار:** مواجهة التحديات الصغيرة بشكل مشترك، كضياع الطريق في مدينة جديدة، أو الحاجة إلى الترجمة، يُدرب الأبناء على التفكير السريع والمرن لإيجاد الحلول، مع غرس قيمة التوكل على الله بعد بذل الجهد والأخذ بالأسباب.

- **التواصل الفعال:** التفاعل مع أناس من ثقافات مختلفة، حتى لو كان ذلك بإشارات أو بكلمات بسيطة بلغة أجنبية، يكسر حاجز الخوف من التواصل وينمّي المهارات الاجتماعية، ويفتح آفاقًا لبناء جسور التفاهم والتعارف مع الآخرين.

- **فهم التنوع البشري:** رؤية ظروف حياة مختلفة في بلدان أخرى تُنمّي حس التعاطف وتقدير النعم المتوفرة لدينا، وفهم أن اختلاف ألوان الناس وألسنتهم آية عظيمة من آيات الخالق: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} (الروم:22).

- **تقوية الشخصية والاعتماد على الذات:** تتاح للأبناء خلال الرحلات العائلية ممارسة بعض الاستقلالية تحت إشراف الوالدين؛ كاختيار وجبة من قائمة الطعام، أو التحدّث مع بائع في متجر، أو تحمّل مسؤولية الأمتعة، وجميعها تُدرّبهم على تحمل المسؤولية وتعزز ثقتهم بأنفسهم.

اكتشاف المواهب والاهتمامات

قد يكتشف الطفل شغفًا جديدًا بالتاريخ بعد زيارة قلعة، أو يوقظ لديه حب الأدب بعد زيارة مكتبة، أو يحاول التعرف على علم الفلك بعد المرور على معرض فلكي، أو يبدأ بتعلم لغة أجنبية بعد زيارته بلدا جديدا. في جميع الأحوال، هي نافذة لاكتشاف آفاق الأبناء واستثمارها في كل ما هو نافع ومفيد.

والأهم من ذلك، أن التعرض لثقافات وحضارات مختلفة يغرس في نفوسهم قيم التسامح والانفتاح على الآخر، وفهم أن التنوع جزء أساسي من نسيج الحياة البشرية، وأن الاختلاف لا يعني بالضرورة الصراع، بل قد يكون مصدرا للثراء والفهم المتبادل، ودعوة للتعارف والتكامل لا للتعصب والتنافر.

إن دور الوالدين في تعزيز الحفاظ على الهوية الإسلامية، والتمسك بالعادات والتقاليد العربية الأصيلة، أمر بالغ الأهمية؛ لذا، يجب أن تتوافق الجهات السياحية والأنشطة المختارة مع هذه المبادئ والقيم، حتى نتجنب ما قد يتعارض معها. وعندما تكون النية صالحة مصحوبة بالدعاء، فإن البركة ستحل بإذن الله، وسيحالف الرحلة التوفيق.

الوالدان عليهما مسؤولية كبيرة في تعليم الأبناء الصبر على التحديات غير المتوقعة (كتأخر الطائرة أو ضياع الأمتعة)، والشكر على نعمة سهولة التنقل، والتسييح عند رؤية جمال المناظر، وحسن التعامل مع الناس من مختلف الأعراق والخلفيات، والالتزام بالآداب الإسلامية ومراعاة الأنظمة والقوانين.

ماليزيا ودمج الأصالة بالحدث

من تجربتي في هذا الإطار بالتحديد، كانت إحدى الرحلات العائلية إلى ماليزيا وما زالت محفورة في ذاكرة أسرتي حتى الآن، كنا قد اخترنا ماليزيا كوجهة لجمعها بين الحدث والأصالة وثناء تنوعها الثقافي مع حفاظها على هويتها الإسلامية. وشاهدنا فيها المساجد المزخرفة جنبًا إلى جنب مع المعابد البوذية والهندوسية، وهذا مثال عملي لتعليم أبنائي فكرة التعايش السلمي والتسامح واحترام الآخر. ففي منطقة "جورج تاون" في بينانج، شاهدنا كيف تتجاور الكنائس والمساجد والمعابد في شوارع متقاربة، ومع ذلك تعيش بوفاق وسلام.

زيارة مرتفعات "كاميرون هايلاندز" الخضراء، والمبيت في أكواخها البسيطة وسط مزارع الشاي الشاسعة، كانت درسا في القناعة والتكيف مع الطبيعة، وتقدير جمال الخلق بعيدا عن صخب المدن. استمتعنا هناك بجمال الطبيعة الخلاب، وتأملنا في دقة صنع الله للنباتات والجبال.

وفي كوالالمبور، لم نكتفِ بزيارة الأماكن السياحية الحديثة مثل برج "بتروناس" الشهيرين، بل حرصنا على زيارة مسجدنا الوطني الضخم، ومسجد "بوتراجايا" ذي العمارة الفريدة، وتأملنا في العمارة الإسلامية الحديثة التي تمزج بين الأصالة والمعاصرة، مما عزز في نفوسنا الفخر بهويتنا.

كانت فرصة لشرح تاريخ الإسلام في المنطقة وكيف وصل إليها، فقد كانت ماليزيا أكثر من مجرد إجازة عائلية؛ بل كانت رحلة تعلم واكتشاف وتأمل في آيات الله الكونية والاجتماعية، وكيف يمكن للمسلم أن يكون جزءًا فاعلا ومتسامحا في هذا العالم المتنوع.

خاتمة



إن السفر مع العائلة استثمار في المستقبل، واكتساب خبرات ومهارات جديدة تساهم في بناء أجيال واعية،
منفتحة، متمسكة بقيمها الأصيلة، قادرة على فهم العالم والتفاعل معه بإيجابية. فلتكن رحلاتنا العائلية محطات
تزيد من الروابط، وترسخ القيم الإيمانية في نفوس أبنائنا، وتصل مهاراتهم وتنمي مواهبهم.